

حال المسلمين الاجتماعية

ومطامه الازغنياء وسائر الطبقات منها (١)

١

الانسان عالم اجتماعي لا يصل فرد من أفراده ولا شعب من شعوبه الى كماله المقدر له الا بالاعمال الاجتماعية التي يتعاون عليها أفراد العشيرة وأهل البلد والوطن وسائر الناس ، وعلى قدر هذا التعاون يكون اقرب من الكمال الاجتماعي والبعد عنه ، فالامم بالافراد والافراد بالامم ، فهنينا للامة التي تتسم بسمي أفرادها غارب العز والسيادة، وتتسم بريح القوة والسعادة، ود يا ويح الرجل الذي ليس أمة « (٢) وما كل جمع كبير يستحق أن يسمى أمة ، لولا سعة المجاز في الكلام ، كقولنا في صور الناس وتماثيلهم هذا فلان وهذا فلان

المستعملون جمع كبير يطلق عليه اسم « الامة الاسلامية » بحسب صورته أو باعتبار ما كان عليه وان كان لا يقوم بالاعمال الاجتماعية التي تتحقق بها مقومات الامم ومشخصاتها ، وتحفظ بها مصالحها ومنافعها ، والمنار مقالات كثيرة في بيان هذا الموضوع يطلب أقدمها عهدا من المجلد الاول منه. ومن أشهرها مقالة في المجلد التاسع عنونها (حال المسلمين في العالمين ، ودعوة العلماء الى نصيحة السلاطين) كان لها تأثير في الشرق والغرب ، وترجمها بالتركية أحد فضلاء الآستانة وطبعها في رسالة مستقلة باللغتين

وقد نطق على المسلمين اسم الامة باعتبار ما نرجوا أن توول اليه حالهم، فباعتبار ان ذلك الاستعمال من مجاز الكون بينا غير مرة في تلك المقالات أن الاصلاح الاسلامي ينحصر في كلمة « تكوين الامة » اذ لا أمة في الحقيقة ، وباعتبار أن ذلك الاستعمال من مجاز الأول يتسع مجال الاطلاق . وكثيرا ما بيننا الكلام على تحقيق الرجاء ، وصرحنا بأن الامة قد ولدت ولادة جديدة ، وأنها الآن في سن الطفولة ، وان ما تصدى له من الاعمال الاجتماعية انما كان صغيرا وعرضة للفشل في الاكثر لانه من

(١) هذه المقالة الموعود بها (٢) هذه الكلمة لتبيننا الاستاذ الامام

قبيل أعمال الاطفال ، وقد شرحنا هذا الموضوع في مقالات نشرت في المجلد الثاني وغيره (٥) وذكرنا في المجلد الرابع أمثلة لطفولية الامة ، وقد حدث بعد ذلك ما هو أعظم منها ، وناهيك بسقوط جريدة اللواء العربية وأختيها الفرنسية والانكليزية ، وموت مصطفى كامل باشا مؤسسها بأموال الاعراء والاغنياء غارقا في الدين ، وبيع أثاثه ورياشه بالمزاد ، ثم سقطت جريدة المؤيد وموت صاحبها غارقا في الدين أيضا ، ثم سقطت (الجريدة) وهي جريدة حزب كبير من الاغنياء

فهذه أكبر الجرائد التي أسسها المسلمون في مصر ، وكان لكل منها شركة وحزب ورأس مال موات من ألوف الجنيهات وأنصار من أغنياء الامة وأصحاب الاقلام فيها ، وقد بينا وجه العبرة في شأن هذه الجرائد بعد موت الاولى وتبريح الداء بالآخرين في ترجمة الشيخ علي يوسف من المجلد السابع عشر (ص ٦٩)

وما لي لا أذكر وأذكر في هذا المقام بتلك الفاتحة الوجيزة للمنار التي كانت أول ما كتب منه ، ونحمد الله تعالى أنها كانت صورة مصفرة له ، قد ارتسمنا مارسمناه له فيها فلم نخرج عنه ، وقد أشرنا فيها الى سوء حال المسلمين ورغبة سوادهم الاعظم عن ما تقصد اليه بانشاء المنار من الجد والاصلاح ، والى وجود أفراد تنبئت أنفسهم لاصلاح الخلل ، وتوجهت همهم لمداواة العلل ، والى ان الغرض من انشاء المنار ان يكون لسان حال هؤلاء وحادي ركبتهم في سبيل التجديد المطلوب . ثم ظهر لنا ان رجائنا في هذه الفئة كان أكبر منها في نفسها

تيسر لنا بهذا المنار أن نختبر حال المسلمين اختبارا لا يكاد يتيسر بوسيلة أخرى ، وقد كان هذا الاختبار الطويل والعلم التفصيلي مؤيدا لما كنا عليه قبلها من الوقوف بين الخوف والرجاء وترجيح الامل على اليأس ترجيحا يبعث على الجهاد والثبات على العمل ، وهو ما صرحنا به في فاتحة المنار في العدد الاول لسنة الاولى كان موضوع ذلك الامل الاول من أيقظتهم حوادث الزمان ، وأثرت في قلوبهم آثار حكيم مصر وحكيم الافغان ، ومن على مشربهما من دعاة الاصلاح ،

* (راجع مقالة (طفولية الامة وما فيها من الحيرة والغمة) في ص ٧٣٧ م ٢ ومقالة (الحيرة والغمة ونبأتهما في الامة) في ص ٧٥٣ م ٢)

ثم زاد عدد هؤلاء المحبين للإصلاح بتأثير المنار ، ومنهم صاحب الرسالة التي نشرناها في آخر الجزء الماضي فاستتبعت كتابة هذا المقال ، فهو قد اشترك في المنار منذ أنشئ وكان تلميذا في المدارس ، وقد اشرب قلبه حب الإصلاح ، فهو فيه على علم ووجدان وإخلاص ، ولكنه على علمه وسعة اختباره لما في هذا البلاد من الفسق وفساد الاخلاق ، أقوى منارجاء في مسلميها وفي غيرهم ، واننا نخشى ان يضعف ويضمحل هذا الرجاء أو يزول ويحل محله اليأس اذا رأى أن رسالته لم تؤثر ، ودعوته لقومه لم تجب ، فأحسبنا أن نذكره بما أشرنا اليه آنفا مما نشرنا في خوالي السنين ، ونؤيده بما في معناه من بيان حقيقة حال المسلمين ، اعلمه يذهب بغرور المبالغ في التفاؤل ، ويمسك ريق الرجاء على المهوي الى اليأس ، وينفخ نسمة الرجاء في اليأس ، فنقول :

ان في المسلمين كثيرا من بقايا الفضائل الموروثة ، التي هي تعد من دلائل الحياة الاجتماعية ، وكثيرا من الرذائل والامراض الروحية الموروثة والحادثة التي هي سبب ما حل بدولهم وأمهم من الرزايا التي يئن منها كل من شعر بها بقدر شعوره ، وقد استيقظ في بعضهم هذا الشعور منذ مئة سنة أو أكثر ، وتصدى بعض حكاهم وبعض أفرادهم الى إصلاح ما فسد ، وتجديد ما اخلواق وبناء ما انهدم ، كما بينا ذلك في فاتحة المجلد السابع عشر ، وانما لم يقف أحد منهم لان الحكام القادين على تنفيذ الإصلاح لا يعرفون طريقه ، والافراد الذين يعرفون كنهه الإصلاح لا يقدرون على تنفيذه

إنما تنهض الأمة بالإصلاح اذا وجد الاستعداد في الجمهور ، ووجد الزعيم القادر على استخدام ذلك الاستعداد ، ويمكن بيان هذا الاستعداد العظيم بكلمة واحدة من اصطلاح كتاب الجرائد وغيرهم من المعاصرين وهي (التضحية) وما التضحية الا بذل الاموال والانفس في سبيل المصالح العامة وهو ما يعبر عنه القرآن بكلمة الجهاد ما قام أمر اجتماعي عظيم كالدين والدولة الا يبذل المال والنفوس فمن لم يبذل في سبيل دينه أو دولته ووطنه ما يحتاجان اليه من مال أو نفس فلا دين له ولا دولة ولا وطن ، ولذلك جعل الله تعالى هذا الجهاد آية الايمان مثل قوله (٢٩ : ١٥) انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل

الله أولئك هم الصادقون)

نحن لسنا بصدد إصلاح يحتاج فيه الى بذل النفس ، والتعرض لإرابة الدم ، وإنما الإصلاح الذي أسس له المنار ثم مدرسة الدعوة والارشاد اصلاح عامي تهذيبي يقوم بالمال ، وإنما أنشأنا هذه لفائدة لبيان حال من دعاهم ذلك المخلص الغيور في رسالته الى التوضيح بمشروع الدعوة والارشاد ومساعدة المنار

الا وان الاغنياء أول من يخطر بالبال ، في كل مقام يذكر فيه بذل المال ، وان أكثر اغنياء بلادنا بل أمثنا كلها أغنياء سفهاء الاحلام ، مسرفون في الفسق ، بخلاء حتى بما وجب من الحق ، أشح على الخير ، لا يكاد يخرج المال من أيديهم الا على مائدة قمار ، أو في حانة خمار ، أو لبني وقواد ، أو رشوة لحاكم شرير ، أو تزلفا الى سلطان أو أمير أو مدير ، فأكثر ما بذله أغنيائنا في هذا العصر للجمعيات الخيرية أو المدارس أو جمعية الهلال الاحمر أو جمعية الصايب الاحمر فهوريا ، وتزلف للحكام والامراء ، وهذا مما يعلمه الكاتب وغير الكاتب علما ضروريا أو كالضروري .

وأما غير الفساق المرائين من الاغنياء فهم كسائر الناس ، والناس فيما نحن بصدده فريقان : فريق لا يرجي منه خير للاسلام بل يخشى شره ، وفريق قلما يرجي الخير من غيره . فأما الفريق الاول فتلاثة أصناف : ملاحدة المتفرجين ، ومناققو المعممين ، وتحت الفقراء الجاهلين ، الذين لا يكادون يفقهون حديثا ، ولا يعقلون للامة والملة معنى ، وقدينا في فاتحة هذه السنة من الجزء الاول ان من أولئك الملاحدة والمناققين من تصدى لمقاومة مدرسة الدعوة والارشاد ، بنفث سدوم السعاية لمنع إعانة وزارة الاوقاف وغير الاوقاف ، كما سعى أمثالهم وأقنابهم من قبل في الجمعية الخيرية الاسلامية ، حتى زعموا أنها تعد مهددي السودان بالمال لقتال مصر والدولة البريطانية .

وأما الفريق الثاني وهو لوسط في شؤونه العقلية أو النفسية ، أو شؤونه الاجتماعية أو المعاشية . فيتألف من أصناف يقل فيها الغنى الموسع ، كما يقل فيها الفقر المدقع ، والاعنياء منه ثلاثة أصناف :

صنف تربي تربية اسلامية بحسب ما عليه جمهور المسلمين في القرون الاخيرة من مزج السنن بالبدع ، والخرافات بالحقائق ، فهم لا يفقهون من بذل المال في سبيل

البر الابناء مسجد ولو في مكان تزيد فيه المساجد على حاجة المصلين ، (وإنما يكون هذا من الخير إذا لم يبن المسجد على قبر أحد من الصالحين ، والا كان صاحبه ملمونا على لسان خاتم النبيين) - أو وقف أرض تنفق غلتها على تشييد القبور والبناء عليها أو حولها وما يكون من المواسم عندها في الاعياد وجمع رجب ، وكل ذلك من المعاصي وبدع الضلالة المنكرة التي لا يجوز الوقف عليها وان تضمنت إطعام بعض الفقراء الطعام المتبدع لاجلها ، فهذا الصنف قلما يرجى منه الآن فائدة للأعمال الاصلاحية كشرع الدعوة والارشاد

وصنف آخر تربى أفراده على التفرنج ولكن لم يكونوا كجماهير المتفرنجين الذين لاحظ لهم من حياتهم الا تقليد الافرنج في عاداتهم الخاصة بالزينة والطعام والشراب والتمتع باللذة واللهو واللعب كترية السكلاب والسير بها والركوب معباء بل أودع في نفوسهم الميل الى الاقتداء بهم في بذل المال للمنافع العامة ، لا رياء للجهور ، ولا تزلفا لحاكم أو أمير ، بل لان ذلك عندهم من اللذات النفسية ، أو الشرف والكمال الانساني ، وبهذا ارتفعوا عن جمهور الاغنياء الاغبياء السفهاء ، وامل هذه البلاد لا تخلو من افراد منهم ، ومن عساه يوجد منهم فقد يبذل المال للمساعدة على تعليم الموسيقى والتصوير أو الالاعاب الرياضية ، وقلما يحفل بالإصلاح الديني العلمي الا ان كان له نزعة دينية أو تهذيبية ، وأتى لجماعة الدعوة والارشاد بالاهتداء الى مثل هذا واقناعه بأن مقصدها الاول من مدرستها بث المرشدين في أنحاء البلاد لتعليم العوام ما يحرهم عن المعاصي والمنكرات ، ويزكيهم من أدران البدع والخرافات ، حتى تستفيد المدرسة من مساعدته ؟

وصنف ثالث هم الوسط الصحيح وهم الذين أوتوا نصيبا من التربية الدينية والعلم الاسلامي الصحيح ، ونصيبا من حال هذا العصر وما يحتاج اليه المسلمون فيه من الاصلاح ، والغني في هذا الصنف أندر منه في سائر الاصناف ، والرجاء في مثله لمساعدة الدعوة والارشاد ، أقوى وأشد منه في سائر الناس ، الا أن يذله على دينه وعقله البخل الفاحش والشح المطاع ، وإيثار وعد الشيطان بالفقر على وعد الله بالنعمة والاحلاف ، وإذا كان الصنفان المذكوران قبل هذا - وهما كالطرفين له - مما يصعب

اقتناع افرادها بوجود المساعدة على الاصلاح الديني العلمي فهذا الصنف لا يحتاج الى اقتناع ، ولا يخفى عليه وجود ما يوجد منه في البلاد ،

ومن اغنياء هذا الصنف من غلب عليهم الترف ودب الى دينهم الوهن ، فضغفت غيرتهم على اسلامهم الديني ، دون اسلامهم الاجتماعي والسياسي ، فهم يودون اصلاح حال المساكين ، ويعتقدون أن ذلك لا يرجى الا من طريق الدين ، وإنما يودون أن ينهض بالاصلاح غيرهم ، ولا تسمو بهم الهمة الى المساعدة عليه باموالهم ولا بانفسهم

تلك اصناف الاغنياء ، الذين يصح أن يتعلق بهم الرجاء ، بما في انفسهم من هدي الدين أو علو الهمة ، أو العناية بامر الامة ، وقد علم ان من يوجد في هذه البلاد منهم قليل ، وان الرجاء في هذا القليل ضعيف .

فلم يبق من فريق المعتدلين الذين يرجى رفدهم الا المستورون الذين لا يقدرّون على مساعدة الاصلاح الا بما يوفرون من كسبهم بالاقتصاد في النفقة اللائقة بامثالهم ، كصاحب الرسالة التي دعوتنا الى كتابة هذا المقال ، ولا غناء في مساعدة هذا الصنف الا اذا كثروا افراد الباذلين منه ، وفاقا للقاعدة المثيرة : [القليل من الكثير كثير] وما أظن أن الظفر بهذا الكثير عندنا ميسور ،

فعلم مما شرحناه أن من يرجى منهم بذل شيء من فضول أموالهم في سبيل الاصلاح الديني والاجتماعي قليلون ، وان ما يرجى بذله من هؤلاء القليلين في بلادنا قليل لاغناء فيه ، لان أكثر الانفس أحضرت الشح ، واستحوذ عليها الصغار والنذل ، وكذبت وعد الله بالاخلاق على المنفق ، وصدقت وعد الشيطان له بالفقر . ثم إن بذل المال الكثير في هذه السبيل إنما يصدر عن عرفان ووجدان — عرفان بالمصلحة فيه وشدة الحاجة اليها ، ووجدان ايمان راسخ تنال به سعادة الدنيا والآخرة ، أو وجدان شرف باذخ تنال به سعادة الاولى فقط ، على ان باعش الشرف وباعش الايمان ، قد يتلاقيان ويتصالحان ، وانتي أوضح هذا المقام بأمثال ، أشير بها الى أعظم من رجوت هنا من الرجال

كان أرحي أغنياء مصر عندي لمشروع الدعوة والارشاد ثلاثة أصح باسم

واحد منهم وهو رياض باشا تغمدته الله برحمته، ذلك الرجل الذي انفرد في كبراء مصر وأغنيائها بأنه لم يكن يخيب فيه رجاء، ولا يفوته مساعدة عمل من أعمال الخير، ولو عرف كنه مشروع الدعوة والارشاد لما اكتفى بالتبرع له بمئة جنيه، وإنما عرف منه أنه مدرسة خيرية، ففتح ما نفع به مدرسة محمد علي الصناعية، وهي المدرسة التي تولى رياسة جمع الاعانات لها، على ان الخديو وارث ملك محمد علي التي أنشئت المدرسة احياء لاسمه وتذكارا لمرور مئة سنة على ملكه لم يفتحها بأكثر من ذلك. فهذا عذر رياض باشا في عدم صدق رجائي كله في مساعدته لهذا العمل وأما اللذان لا أصرح باسمهما فقد كان رجاؤنا في أحدهما اكبر من رجاؤنا في رياض باشا، وهو أوسع منه ثروة، وفهم من كنه المشروع ما لم يفهمه، بل قال فيه كلاماً يؤثر ويدون له، (منه) انه طالما فكر فيه، وتعجب من احجام المسلمين عن القيام به الى اليوم، وانه يود لو يكون عضوا عاملا فيه، وإنما يمنعه من وضع يده في أيدي أعضاء ادارته عدم ثقته بثباتهم، اللهم الا واحداً منهم، وعلل ذلك بأن أهل بلادنا هذه يقولون ولا يفعلون، وييدون بالاعمال ولا يثبتون، (ومنه) أن هذا العمل سيلقى صعوبات، وتوضع في طريقه العقبات، وانه لا يقول هذا تخطيطاً (أي) بل تنبيهاً، ولا تنصلاً من المساعدة فانه سيساعد بالمال، ثم انه أكد هذا الوعد غير مرة لنا، وذكره لغيرنا، وقد كان آخر عهدنا بالسعي لاستنجازة شهر رجب الماضي

وأما الثالث فهو غني معروف بالعلم والفضل والتدين، وقد كان منذنا أحد أصدقائه بأنه سيتبرع للمدرسة بمئة جنيه غير ما يفرضه على نفسه من الاشتراك السنوي، وذكر لنا صديق آخر له عزمه على المساعدة من غير تحديد. وقد بلغنا ان ما يجب عليه من زكاة النقد كل سنة أضعاف ما يملكه صاحب الرسالة التي نتكلم في موضوعها، وقد ذكرناه في هذا العام بشدة حاجة المدرسة الى ما تنتظر من مساعدته لانقطاع اعانة الاوقاف عنها، ونفاد ما قد جمع لها، فاعتذر بما يعتذر به أكثر الناس في هذا العهد، وهو العسرة التي جاءت بها هذه الحرب

فاذا كان وعد أرجى من نرجو من أغنيائنا، واشتراك من يشترك في مثل هذا المشروع من أفضل فضلائنا، لا يوثق بهما ولا يتكل عليهما في استنجاز دار

لمدرسة خيرية ، قبل يظن (م . ن) صاحب تلك الرسالة أن ماجاء به من النصيحة والتذكير ببسطان الايدي المغلولة ، وينبهان^(١) الانفس المفسولة^(٢) ، فتدقق الدفاتير على مدرسة الدعوة والارشاد اليوم كما تدقت على جمعية الصليب الاحمر بالامس ، وعلى جمعية الهلال الاحمر من قبل ؟ ان كان يظن ذلك فما نحن بظانين ، ولا نحن من فضل الله وحياة المسلمين بيائسين . ولكننا بعد طول الاختبار لانتمرو بوعده واعداءه ولا بثبات متبرع ولا واهب ، وان كان هذا أو ذاك ، فمن اشتهروا بالسخاء ، فان أكثر أصحاب هذه المظاهر ، مصداق لقول الشاعر

يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما
لكنها خطرات من وساوسه

كلا انه لا يرجى في هذا القطر جمع مال كثير بالتبرع يكون رأس مال لمدرسة كدرستنا أو مدرسة دونها الا بنفوذ الامراء والحكام ، وقد كان بعض هذا ممكنا لنا من قبل ولم نطرق بابيه ، وأما اليوم فلا يرجى كله ولا بعضه ، فأما سبب بذل المال تقربا الى الامراء والحكام فعروف ، وأما إمساكه عن المصالح العامة فسيبه ضعف الايمان ، وضعف وجدان الشرف وحب الكمال . والحرمان مما يولدان من المنافع العالية والآمال العظيمة ، وليس في تربية الامة ما يحجي ذلك في نابتها هذا وانما بعد هذا البيان نقول لصاحب تلك الرسالة وغيره من أهل الغيرة ان هذا المشروع لا يرجى أن ينفذ بحسب نظامه المعروف الا اذا نجحنا فيما سعينا اليه في الآستانة ثم في مصر من تقرير اعانة له كبيرة ثابتة من وزارة الاوقاف فهذا يستقر ويوثق بثباته واستمراره ويشتهر نفعه في الامصار والاقطار ، ويرجى بعد ذلك أن يتبرع له ويقف عليه العقار والاراضي كثير من أهل الخير ، ولا سيما بعد أن يتخرج في مدرسته من يحسنون القيام بما فرضه الله تعالى على المسلمين بقوله : (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) فاذا ظفرنا باعانة ثابتة من وزارة الاوقاف فذاك ، والا جعلنا المدرسة خارجية وأنفقنا عليها مما آتانا الله من كسب ومساعدة أهل المروءة والاخلاص مهتدين بقوله تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا الا ما آتاه ، سيجعل الله بعد عسر يسرا)

(١) للتنبية هنا مميان أسدما جبل الحامل نبيه الشان وثانيهما إيقاظ الناقل
(٢) المفسول الضعيف الحامل الذي لامروءة له